مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485
ASJP Algerian Scientific Journal Platfo
المجلد: 05 العدد:02- جوان 2021 ص72/87

الحاجة إلى الإجراءات التأويلية في الخطاب الصوفي

دراسة تطبيقية على أبيات شعرية لابن عربي

The need for reciteral procedures in the mystic speech

An applied study on the poetic verses of Ibn Arabi

سعودي آسية*
جامعة المسيلة - الجزائر
asya.saoudi@univ-msila.dz

أد. مجناح جمال
جامعة المسيلة - الجزائر
djamel.medjenah@univ-msila.dz

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 2021/04/27 تاريخ القبول: 2021/05/15	لقد اهتدى النقد الأدبي الحديث إلى المنهج التأويلي الذي نعتقد أنه يعطي للنص أبعادا لانهائية .ذلك أن كل متلق –حسب نظريات التلقي- يضيف بعدا جديدا و يغنيه بطريقة ما ، و هنا يمكن أن نشير إلى سيرورة المعنى و توالدها و التعتيم الدلالي الذي يميز الخطاب الصوفي جعله على درجة عالية من الغموض مما يتطلب توفر جملة من المعارف و الإجراءات لفك

*المؤلف المرسل

المنارة للاستشارات

شيفراته ، و قد جاء هذا البحث للنظر إلى قدرة المتلقي على فهم نظام التشفير في الخطاب الصوفي والبحث عن الإجراءات التي ينبغي عليه القيام بها إزاء مأزق تلقي الخطاب الصوفي، كذا محاولة معرفة الدوافع الحقيقية لاعتماد الصوفيين على اللغة الترميزية ، وقد تم التوصل من خلال هذا البحث إلى جملة من النتائج أهمها أن النشاط التأويلي يعتبر ضرورة في الخطاب الصوفي ، و كذا فإن تأويل المعاني الضمنية فيه يعتمد اعتمادا تاما على الجهد التأويلي للمتلقي.

الكلمات المفتاحية:

- ✓ تأويل
- ✓ خطاب
- ✓ تصوف
- ✓ تلقي
- ✓ تشفير

Abstract :

The modern literary criticism was guided to the reciteral method which we believe gives the text infinite definitions. So that each recipient- according to receptivity theories- adds a new dimension and enriches it in some way. Here we can point to the development of meaning and its reproduction, The meaning as a signifier has an indicative.

The semantic blackout that characterizes the mystic speech has put it in a high degree of ambiguity which demands the availability of a lump of knowledges and procedures to unlock its codes. This research was made to look into the recipient's ability to understand the coding system in the mystic speech and search for the procedures that the recipient should do towards the predicament of receiving the mystic speech, and to gather the knowledge of true motives as to why the mystics rely on coded language.A sum of results were reached through this research of which the most important is that the reciteral activity is considered a necessity in the mystic speec. Thus the recital of implicit meanings in the mystic speech depends entirely on the reciteral effort of the recipie

Article info

Received 27/04/2021

Accepted 15/05/2021

Keywords:

- ✓ *interpretation,*
- ✓ *Speech ,mysticism,*
- ✓ *receive,*
- ✓ *encrypt:*

المنارة للاستشارات

ww

مقدمة:

يلجأ الصوفي في لغته و خاصة الشعرية منها إلى الرمز و التلميح و الإشارات، إذ يصعب عليه إشراك من هم من غير الصوفية في شعوره هذا و قد ذكر ابن عربي أنه ليس في مستطاع أهل المعرفة إيصال شعورهم إلى غيرهم ،و غاية ما في هذا المستطاع هو الرمز إلى تلك الظواهر التي بدؤوا في ممارستها ؛ فالأدب الصوفي يتجه اتجاها رمزيا في معالجة الظواهر الكونية و في التعبير عن التجربة الروحية التي يمارسها العارفون من أهل التصوف.

ففي رأي الصوفي أن ظواهر الأشياء انعكاسات لبواطنها و أقنعة لجواهرها، و لا يخترق تلك الأقنعة سوى البصيرة الثاقبة التي يغذيها الذوق و الإلهام، أما التجربة الصوفية فتدفع الشاعر إلى الالتجاء إلى الرموز فيستعين بالكلمات التي تومئ بصورة غير مباشرة و غير واضحة إلى المعنى المقصود ،لأن التجربة الصوفية بحد ذاتها غامضة لا يمكن التعبير عنها تعبيرا صافيا مباشرا، فالرموز هي أطوع للشاعر من الكلمات الجامدة ذات المدلول المحدود المعين للتعبير عن تلك النفحات التي تهب على قلبه فتدركها بصيرته و لا يستوعبها عقله. و كل تلك الأحوال تضفي على الصوفي وشاحا من الغرابة و الغموض و تطبعه بطابع رمزي فريد، حتى يخيل للقارئ أنه إزاء تعبير لا يألفه الذوق الفني لأنه مستغلق على من لم يألفه.

فالشاعر الصوفي يؤلف حلقة وصل بين عالم الصوفيين الباطني المغلق و العالم المادي و ظواهره المحسوسة ، لذا فشعره يتأرجح في معانيه بين عالم الروح و عالم المادة، و قد جاء هذا البحث للنظر إلى تلك المعاني الضمنية في الخطاب الصوفي و الإجراءات التي ينبغي على المتلقي القيام بها إزاء عملية التأويل و ذلك باتباع المنهج التداولي .

فالشاعر الصوفي يؤول ما يشاهده و يحسه في العالم المادي تأويلا رمزيا صوفيا ينسجم مع نزعته الروحية ، فنفس الشاعر الصوفي تتأثر بما حولها تأثرا يختلف عن تأثر النفس العادية و إذا فهي تفهمه فهما خاصا و تؤوله تأويلا رمزيا و تخرج منه معنى ملائما للأفكار التي تسيطر عليها و الخطرات التي تتردد فيها. ثم هي تعبر عن مبلغ تأثرها بهذا المعنى و عن ملاءمتها لهذه الأفكار و الخطرات تعبيرا يدل على ما يعرض لها من وجد و غيبة و دهشة و اضطراب ، و من رؤية الأشياء

المنارة للاستشارات

بغير العين التي ترى و سماعها بغير الأذن التي تسمع و فهمها بغير العقل الذي يدرك، ذلك أنه يرى بعينه المتفردة مظاهر الكون و الموجودات و كأنها انعكاسات لجمال الله و ذاته.

2. نظام التشفير في الخطاب الصوفي

1.2 الرموز الصوفية احتكار للمعاني:

إن المباشرة في التعبير عن مكنونات النفس لم يعد لها مكان في الخطاب الشعري الصوفي الذي أصبح ينطوي على ميزاته الخاصة بحيث يجعل خباياه النفسية مكنونة في رموزه و كناياته، فكانت لغتهم لغة تكشف عن خباياهم بطريقة شديدة الخصوصية "بقدرة مدهشة يمتلكها الشاعر وحده تحفظ لغته الشعرية ذلك النور من التلاشي، و تنطق بالمعنى و تمنح الشيء وجوده الحقيقي و بهذه الاستجابة لا يدرك الشاعر الشيء كما هو في الواقع بل يرى وراء ظاهره باطنه." [1]

و ما نشأ عن تلك اللغة الرمزية هو تلك الفضاءات الإيحائية التي يجد فيها المتلقي نفسه تائها في غياب استراتيجية تأويلية واضحة المعالم فالرمز "كثيرا ما نجد فيه تحررا من القيود اللفظية و الأسلوبية ، لذا فالتحكم في الدلالة المقصودة عن طريق الرمز أمر صعب." [2] فالخطاب الشعري الصوفي ذو ترف فني خاص منفلت من الزخرفة البلاغية و البهرجة البديعية ،فلم تكن لغته روتينية بقدر ما شكلت عالما غير معهود عن طريق تعالق مكنوناتها و أسرارها في اللامرئي من جهة و اعتمادها التلويح و الإشارة من جهة أخرى. فهو مرتبط بالقوة بتلك الحوادث الغريبة التي يلاقيها الصوفي و يعيشها مما يجعل عملية تلقيه لا تعدو أن تكون جزءً من تلك الآفاق الروحانية التي أنتجت ذلك الخطاب الصوفي المتفرد، فهو لا يطلع المتلقي إلا على النزر القليل و يترك الباقي طي الكتمان ، فيتم بذلك التعامل مع الخطاب الصوفي باعتباره بنية ديناميكية لا كصنم أصم مغلق.

إنه "من المحال ترجمة الرمز ،و نثر كل معطياته ،ومن العسير القول عن رمز من الرموز أنه يعني كذا و كذا فحسب و إلا لما كان موحيا؛ إذ للطاقة الإيحائية الموجودة فيه بقصد الرمز ذاته ، و في هذا تكمن قيمته و أهميته ،فالرمز هو قبل كل شيء معنى خفي و إيحاء. بل إن التركيب اللفظي إنما هو رمز أدبي يستلزم مستويين:

- مستوى الصور الحسية التي يتخذها الرمز قالبا له.
- مستوى الحالات المعنوية التي يرمز إليها بهذه الصور الحسية .

المنارة للاستشارات

و الأساس في تكوين الرمز الصلة القوية و المتينة التي تربط بين الصور الحسية و الحالات المعنوية المرموز إليها. بحيث يكون الرمز مثيرا و باعثا للحالات المعنوية ، ليس بمعنى أن تكون هذه العلاقة معتمدة على وجه الشبه بين الرمز و المرموز ضرورة ، إذ ينبغي ألا ننسى أن المرموز حالة تجريدية لا شيئا حسيا ،بل إن هذه الصلة و العلاقة إنما هي علاقة ذاتية بين الذات و الأشياء لا بين الأشياء و بعضها الآخر . تعتمد على الحدس و الشعور بما يجعل للرمز قيمة إيحائية لا يتحدد فيها المرموز بكل تخومه و هذا ما يميزه عن الإشارة المقيدة بالتسمية و التصريح و محددة المدلول."[3] و من هنا يبدأ مأزق التأويل و يبدأ معه دور المتلقي الإيجابي في خلق العوالم التأويلية.

2.2 الغموض الدلالي و مأزق التلقي: لقد كان الرمز منذ القدم الوسيلة الأولى للتعبير عما يجول في عقل الإنسان فالهيروغليفية المصرية لم تكن إلا تسجيلا رمزيا فطريا لتلك المعاني، و الأبجدية الفينيقية أيضا لم تتعد كونها مجموعة رموز و أدلة، ثم جاءت الأبجدية الحديثة برموز ضيقة الدلالة و ترجيع لأصداء النطق اللفظي.[4] "و الرمز الشعري عود إلى الينبوع الأول للغة في شكلها الأسطوري المفعم بالمجاز، و تسمية للأشياء في كينونتها و على ما هي عليه." [5]

فعندما نقول أن الكاتب يقترح أنموذجا أيقونيا، فنحن لا ننوي إصدار حكم مسبق حول إخلاصه ، فنحن نقول فقط: إن خطابه –بوصفه عملا أدبيا- يخضع بالمقام الأول إلى شرط القبول الشكلي ، كما يفترض بالفعل الأدبي أن يكون مثيرا للاهتمام بذاته ، بوصفه موضوعا وليس غاية للاتصال، فهو يقدم بوصفه موضوعا جديرا بالقراءة خارج السياق الذي أنتج فيه، و ضمن عدد غير محدد من سياقات التلقي ، بغض النظر عن أية شروط تحضيرية أو غيرها من تلك التي تدير نجاح الأفعال الأخرى.[6] فليس من الصعب العثور في الأدب على كل التجاوزات الممكنة بالمقارنة مع كل القواعد، "الحال أن المتلقي لنص أدبي ما سيكون لديه ميل للبحث في تفسير كل اختراق ممكن بوصفه تضمينا مقصودا ، لا بوصفه تجاوزا ظاهريا فحسب . فبينما يبدو المؤلف حرا في تحديد بناء ملفوظه، فإن القارئ هو المطالب بالتعاون بالشكل الأقصى ، ينتظر منه أن يتعرف على معلومة بنائية إضافية ؛و كذلك أن يقدم تفسيرات جديدة ، و أن يفترض فرضيات، أو مقولات إن أمكن."[7] فالمتلقي في خطوته الأولى لتأويل الخطاب الصوفي ينبغي عليه النظر إلى كل ما هو ظاهري على أنه جبل جليدي لا يبدو منه إلا الجزء اليسير، بينما تظل المعاني الحقيقية غائرة في الأعماق.

المنارة للاستشارات

إن إشكالية التلقي في الخطاب الصوفي مردها للخلفية الإيديولوجية التي تحرك القارئ ،إضافة إلى افتقاده لآليات التأويل لفك شفرات الخطاب الصوفي ، و اختلاف الذوق، ما حدا بابن عربي إلى دعوة المتصوفة قائلا: "إن عاشرتهم على ما أنت عليه قاتلوك، فالستر أولى و أيسره أن تكون كائنا بائنا."[8] فكان ما يقوم به المتصوفة "إعادة التشفير اللغوي في الشعر قديما ،عن طريق نزع الدلالات الأولى الحسية و الدنيوية لكلمات في اتصالها بمجالات الجنس و الخمر و حالات النفس لإدراجها في أنساق رمزية جديدة."[9] فالتجربة الصوفية على اختلاف درجاتها نجد أنها "استحدثت لنفسها قاموسا لغويا و إن كان يقوم في الأساس على نفس المصطلحات اللغوية الموجودة في العربية إلا أنها توحي بغير المتواضع عليه، و تحمل إشاراتها الخاصة ،كما تعبر عن الباطن المتصل بالإلهي و التفسيرات الصوفية للوجود."[10] الأمر الذي فرض على الصوفية سلوك التعتيم و التستر متجاوزين اللغة الشائعة بمفرداتها، ذلك أنهم "قصدوا أن تكون ملغزة و رامزة و بعضها الآخر كان نتيجة لغلبة الحال عليهم، و ضيق العبارة بالنسبة لهم و عجز اللغة أن تترجم بدقة لأحوالهم و مواجدهم و أذواقهم." [11]

فالتعامل مع الخطاب الصوفي يجعلنا نلقي نظرة فاحصة على طبيعة اللغة الصوفية ،حيث يعتبر المصطلح الصوفي أولى الإشكاليات التي يواجهها متلقي هذا الخطاب ذلك "أن هذه الطائفة اصطلحت على ألفاظ في علومها تعارفوا بينهم و رمزوا بها، فأدركه صاحبه و خفي على السامع الذي لم يحل مقامه، فإما أن يحسن ظنه بالقائل فيقبله و يرجع إلى نفسه فيحكم عليه بقصور فهمه عنه، أو يسود ظنه به فيهوس قائله و ينسبه إلى الهذيان، و هذا أسلم من رد حق و إنكاره." [12] فقد عمدوا إلى استعمال "لغة خاصة في التعبير عن مواجيدهم هي لغة التصوف الإسلامي، إذ يعتبر التصوف جانبا منها، فقد كان للصوفية مصطلحهم الصوفي و لكنه ليس سوى جزء من اللغة الصوفية التي تتضمن المصطلح و الشطح و الحرف و الحكمة ،و التفسير و لا نكاد نجد نفس اليسر في مختلف مناحيها إذ أن التعقيد هو سمتها الأساسية." [13] و هذا الإفراط في الرمزية و الغموض لدى الشعراء الصوفيين خلق عجزا في سيرورة التلقي و القراءة التأويلية فنجد "هذه الطائفة يستعملون ألفاظا فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، و الاجتماع و الستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الاجانب." [14] فقد وضعوا لغة خاصة بهم تواضعوا عليها شأنهم في ذلك شأن العلوم الأخرى ، فلكل علم مصطلحاته الخاصة، إلا

المنارة للاستشارات
ww

أن الرموز الصوفية متميزة بطابعها التخييلي حيث لا يمكن تخيل رمز دون خيال فهو مرتبط به ارتباطا وثيقا ، الخيال هو الذي ينقل الصوفي من الواقع إلى حضرة الذات الإلهية .

3. الدلالات السياقية و فعل التلقي:

1.3 النشاط التأويلي ضرورة في الخطاب الصوفي: يقوم النشاط التأويلي على أساس الوضع داخل السياق ، فهو يرجع الفقرة المعتبرة ، حتى ولو كانت جد مختصرة (يمكن أن تكون كلمة) إلى محيطها ، حسب مناطق المحلية (مركب، حقبة) ذات الحجم المتطور ،كما يرجعها إلى فقرات أخرى من النص نفسه ،ويتم استدعاؤها بإجراءات المماثلة أو التباين . و أخيرا يربط النشاط التأويلي الفقرة بفقرات أخرى منتمية إلى نصوص أخرى ، مختارة من داخل المرجع ، و هي النصوص التي تدخل ضمن متن العمل.[15] حيث لا يمكن تأويل جزء من الخطاب منفصلا بل يجب سياقيا ربطه ببقية أجزاء الخطاب ، مثل قول ابن عربي:

فَإِنّ بِهَا مَنْ قَد عَلِمتُ، و مَن لَهُمْ   صِيَامِي و حَجِّي و اعْتِمَارِي وَ مَوسِمِي[16]

إن المكان الذي يتحدث عنه ابن عربي حين قال "بها" لا يمكن أن يتحدد إلا بالعودة إلى السياق النصي، فنجد المعنى لا يكتمل إلا به، حيث يقول:

خَلِيلَيَّ عُوجَا بِالكَثِيبِ، وَعَرِّجَا   عَلَى لَعْلَع، و اطْلُبْ مِيَاهَ يَلَمْلَم[17]

ندرك من خلال ذلك أن المكان الذي يتحدث عنه هو "لعلع" و هو موضع حال دهش و حيرة، و تولع لتقع الرؤية عن محبة و شوق، و اطلب مياه يلملم ، جهة كائنة. أي: رد على موطن الحياة إذ كان من الماء كل شيء حي ،و لما كانت الأنفاس يمنية فلتكن الحياة أيضا من مناسبة هذه الجهة للمشاكلة.[18] لذلك يعتبر النظر إلى السياق من الإجراءات التأويلية الناجعة في قراءة الخطاب الصوفي.

إن البحث في المعنى و الدلالة ،يقتضي دراسة السياقات الخطابية ،و قد اهتمت النظرية السياقية بموضوع المعنى ، و رأت أنه يتحدد بالاعتماد على السياق ، فيأخذ الدور الفعال في الإرسال و التلقي معا ،و نقصد بذلك أن السياق في اللغة يكتسب قيمة كبرى إذ لا تتحدد معاني العبارات إلا من خلاله منها المثال التالي : تفضل بالجلوس على مقعد عصير التفاح. فهذه الجملة – منعزلة -لا تحمل أي معنى إطلاقا، بما أن عبارة (مقعد عصير التفاح) لا تدخل في الأسلوب المتواضع عليه بصدد الإحالة على أي نوع من الأشياء. إلا أن لهذه الجملة معنى تاما في السياق الذي

المنارة للاستشارات
ww

قيلت فيه : قضى شخص ليلة عند أصدقاء له و نزل في الصباح لتناول فطوره، كانت مائدة الفطور معدة لأربعة مدعوين ،و عليها ثلاثة كؤوس عصير ليمون و كأس عصير تفاح ، هنا تتوضح عبارة (مقعد عصير التفاح) و انسحاب هذه العبارة على ذلك المقعد يصبح أمرا بديهيا في الصباح التالي حيث لا يوجد عصير تفاح على المائدة : فالمقعد أصبح معروفا عن طريق هذه التسمية.

و بالإضافة إلى الجمل التي ليست لها دلالة خارج السياق ، هناك حالات قد نفيد فيها جملة أشياء مختلفة بالنسبة لأشخاص مختلفين. لننظر إلى الجملة التالية:

_ نحتاج إلى مصادر جديدة للطاقة. إن ما تفيده هذه الجملة ،بالنسبة للمدير العام لشركة "شيل" النفطية ،يختلف كثيرا عما تعنيه بالنسبة لرئيس منظمة (أصدقاء الأرض) فالدلالة لا توجد بصورة مباشرة في الجملة: إنها غير مستقلة، بالنسبة للكثيرين ، عن الذي تلفظ بجملة أو سمعها، و عن قناعاته الاجتماعية و السياسية.[19] كما يؤكد عبد القاهر الجرجاني أن المعنى هو كل شيء ،وأن اللفظ بمعنى الجرس و الصوت لا قيمة له " و إن كانت هناك قيمة فلما يحمل من معنى هذا السؤال في الشكل الذي وصفناه به يتجه إلى ناحيتين: الأولى اللفظ في جرسه و صوته ووقعه على الأذن ،و تأليف حروفه ، و عدم المنافرة فيها ، و الثانية اللفظ في دلالته على المعنى الذي يحمله بالفعل أو القوة على حد تعبير المناطقة، و نقصد بالقوة ما يمكن أن يخرج به اللفظ إلى المعاني الأخرى التي يتحملها عن طريق الاستعارة و المجاز."[20]

وفي مجال توضيح علاقة المعنى بالسياق تجدر الإشارة إلى أن العناصر السياقية هي عناصر شكلية تتمرأى لنا عبر أقسام الكلام، أي عبر الأفعال و الأسماء و الأدوات ففي قولنا مثلا "السيارة تنهب الأرض نهبا" نعتبر أولا بأول ،أن العناصر الألسنية التي تسبق فعل "تنهب" و تلحق به هي التي تشكل سياق هذا الفعل و تحدد معناه في هذه الجملة ، من هنا كان الرأي أن كل تغيير نحوي في تركيب الجملة يؤدي إلى تغيير المحتوى، ففي التعبير الأول يشير إلى السرعة أما في الثاني على السرقة الشاملة.

هذا التغيير في المعنى هو الذي دفع علماء اللغة إلى القول إن الكلمة لا معنى مستقلا لها و إنما لها معانٍ تتغير بتغير السياقات التي ترد فيها.[21] كما في قول ابن عربي:

نَادَيتُ خَلْفَ رِكَابِهِم مِنْ حَبِّهِمْ: يَا مَنْ غَنَاهُ الحُسْنُ هَا أَنَا مُفْلِسُ[22]

المنارة للاستشارات

إن لفظ مفلس قد تدل في السياق الاعتيادي على عدم امتلاك النقود، لكن هذا المعنى بلا شك سيختلف في سياق الخطاب الصوفي حيث يقصد ابن عربي بالمفلس الذي فقد كل قوى الشباب، حيث يقول: " لما رحلت قوى الشباب و ملذوذات البداية في الفترة و الحيرة و الهمم تزعج و المركب غير مساعد بقيت في صورة المفلس الذي يرى أطايب الملذوذات و يدخل سوق النعيم و الشهوات و ماله درهم يصل به إلى نيل شهوة من شهواته." [23]

أما في مجال توضيح علاقة المعنى بالمقام فتجدر الملاحظة إلى أن معظم الألسنيين يأخذون بأهمية المقام أو ظروف القول في تحديد المضمون الدلالي للكلمات .فالمقام هو الذي يساعدنا تبيان العلاقة بين الكلام و ما يومئ إليه في الواقع ، و المقام هو الذي يوضح العلاقة بين مرسل الكلام و متلقيه و توضيح العلاقة بين المعنى و السياق تبتدئ بشكل أوضح إذا ما ذهبنا مذهب "بريتو L.preito" في تقسيم المعنى إلى قسمين :

- المعنى الذي يتكون من النص أو المرسلة أساسا،

- و المعنى الذي ينشأ عن معرفتنا بالظروف التي ألف فيها النص ، أو قيلت فيه المرسلة ،ففي قولنا مثلا: "كان الحصان يقفز في البرية" يتحصل معنى هذا القول من القول نفسه ، أما في قولنا "سآتي للعشاء عندك السبت المقبل" فمعنى القول هنا لا يتحصل من القول نفسه، ولابد لنا للامساك به و جلائه ،أن نعرف هوية الذي سيأتي و نتحرى زمن الموعد برجوعنا إلى سياق القول و ظروف وروده. " [24] و قد ذهب بعض الدارسين إلى أن المعنى الحرفي الخالص غير موجود، أو على كل حال أن "المعنى الحرفي نفسه لا يختص بمحايثته للغة بطريقة داخلية ،و لكن كل معنى يشتغل أيضا على أساس الروابط الخارجية مع العالم، هذه الروابط و الافتراضات "المعطيات الخلفية المشتركة " باصطلاح "سورل Seurl "، هي من الكثرة و التعقيد بحيث لا نعي بها في العموم، و يكون من العبث إقامة تصور شامل لها." 25

مَن ظَلَّ فِي عَبَرَاتِهِ غَرِقًا وفِي   نَارِالأَسَى حَرِقًا وَلَا يَتَنَفَّسُ [26]

فلا يمكن في هذا الخطاب الشعري أن نأخذ بالمعنى الحرفي ، حيث يصبح الأمر مناقضا للواقع و منافيا للمنطق فيستحيل أن يغرق الشخص في عبراته ،أو يغرق في نار الحزن و يختنق فيها، و في تأويله يقول ابن عربي:" إن حالته مترددة بين عبرته و زفرته، فكنى بالعبرة من الاعتبار الذي هو

المنارة للاستشارات

الجواز عن حالة النجاة له إلى الهلاك فيه وهو الغرق. وكنى بالزفرة عن نار الأسى."[27] لذلك يعتبر الخطاب الصوفي خطابا ضمنيا إلى حد بعيد و يتم التعامل معه وفق آليات قرائية خاصة تضمن نيل بعض المقاصد الخطابية.

2.3 تأويل المعاني الضمنية في الخطاب الصوفي: تداوليا يستعمل مصطلح المعنى الضمني implicature للحديث عما يمكن أن يضمنه أو يوحي به أو يعنيه المتكلم فوق ما يصرح به ظاهر كلامه ، و في ذلك يقول **فرناند هالين fernand haline** معبرا عن إمكانية ابتعاد اللغة عن المقاصد الحقيقية للتلفظ :"اللغة التي خدمتني في التعبير عن مقصدي، عن رغبتي ، عما أوصي به، عن رأيي، هذه اللغة التي أدت مهمتها، سرعان ما تتلاشى بمجرد وصولها. لقد أطلقتها كيما تنعدم ،كيما تتحول جذريا إلى شيء آخر في أذهانكم ، و سوف أدرك أني فهمت هذه الواقعة المتميزة التي تفيد بأن خطابي لم يعد موجودا :لقد حل معناه محله بشكل كلي ،أي لقد حلت صور ،نوازع، ردود أفعال، أو أفعال تعود لكم، محله... يترتب على ذلك أن كمال هذا النوع من اللغة – التي تتمثل غايتها الوحيدة بكونها مفهومة- يكمن بشكل واضح في السهولة التي تتحول بها إلى شيء آخر تماما."[28] مثال ذلك قول ابن عربي:

فَإِذَ ا وَقَفَتْ عَلَى مَعَالِم حَاجِـر   وَقَطَعَتْ أَغْوَارًا بِهَا وَجِبَـالاً

قَرُبَتْ مَنَازِلِهِمْ، وَلاَحَتْ نَارُهُم   نَارًا قَدْ أَشْعَلَتْ الهَوَى إِشْعَالًا [29]

حيث يتجاوز المعنى الظاهري للفظ النار في معناه الحقيقي عند المتلقي إلى معنى صوفي حيث تدل على المكاره التي اقتحموها حتى أوصلتهم إلى هذه المنازل العلية، فإن الجنة حفت بالمكاره، و يقول: أضرمت في القلب نار الحب لنيل هذا المقام ليكون تأييدا له و قوة على اقتحام الشدائد في نيل المطلوب الذي تعلق به قلبه.[30]

الملفوظ وسيلة اصطلاحية لإيصال مقصد متضمن في القول يتجاوز المحتوى الخام له، لكنه يشكل قاعدة ضرورية لا غنى عنها، غير اتفاقية للدلالة على ذلك الغرض ، بهذا المعنى يتعلق الأمر باشتراك في التلفظ بإنشاء الباث والمتقبل دلالة في الوقت ذاته على أساس المواضعات و المعطيات السياقية و الخلفية المعرفية المشتركة.31

المعاني الضمنية ترتبط ارتباطا وثيقا بالمقاصد التي ينوي المتكلم إيصالها إلى المتلقي وهذا ما تحدث عنه براون ويول: "ومن المفيد التأكيد أن المعاني الضمنية هي جوانب مقاصدية من المعنى

المنارة للاستشارات

المباشر للقول حسب استعماله في سياق محدد مشترك بين المتكلم والمخاطب، وتعتمد على التزام المتكلم و المخاطب بالمبدأ التعاوني و ضوابطه."32

وقد كتب ابن عربي ديوانه ترجمان الأشواق في الغزل و يشكل البكاء على الأطلال ثلثه ، فجعل كل اختلاجاته العرفانية بلسان الغزل الذي لا يجد المتلقي في تقبله أقل عائق ، فتبنى بذلك علاقة تأويلية بين الغزل في ارتباطه بعشق المحبوب و التعلق به و بين حب الله و الفناء فيه و تلك المعاني الضمنية قد تكون مجرد تأويلات بسبب صعوبة الإلمام بمقاصد المتكلم ؛ لكن يقل ذلك بالعودة إلى السياق وتكون إمكانية وجود التأويل الصحيح كبيرة نوعا ما.

لذلك نجده يصرح بأن المعاني الحقيقية رغم شروحه لا تزال مغيبة و كل الألفاظ لازالت تحت وطأة سيرورات التأويل فيقول: " وعلمي بأن أصحابنا من أهل هذا الشأن يعرفون ما أشرنا إليه في هذا الإيماء و الإجمال أغنانا عن التفصيل و التصريح و علم الله ما قيدت هذا القدر في هذا البيت إلا و الحمى تنفضني من باطني مما أجد من قوة الوارد و ازدحام تموج المعارف فيه ولا أقدر على إذاعة ما أجده مع القوة التي أعطاني الله على التعبير عنه و إيصاله إلى الأفهام القاصرى فأحرى ما فوقها من الأفهام، و لكن الغيرة الإلهية و حجاب العزة الأحمى المنصوب بين عينيه منع من ذلك و هذه لفتة مصدور." [33]

إن لجوء ابن عربي إلى الغزل و مناجاة الحبيبة و التوسل لها بالبقاء آلية من آليات إضمار حقائق الصوفية كما في قصيدة لا عزاء و لا صبر نجده يقول:

بَانَ العَزَاءُ، وبَانَ الصَّبرُإذ بَانُوا   بَانُوا وهُم فِي سُويدَا القَلبِ سُكَانُ
سَأَلْتُهُم عَنْ مَقِيلِ الرَّكْبِ،قِيلَ لَنَا   مَقِيلُهُمْ حَيثُ بَانَ الشِّيحُ و البَانُ
فَقُلتُ للرِّيحِ: سِيرِي،والْحَقِي بِهِم   فَإِنَّهم عِندَ ظِلِ الأَيكِ قُطَّانُ
وبَلِّغِيهِمْ سَلاَمًا مِنْ أَخِي شَجَنٍ   فِي قَلبِه مِنْ فراقِ القَومِ أَشْجانُ[34]

يبدو العاشق المتيم معذبا حزينا لرحيل أحبته بعد أن كان القلب مكانهم ،فهاهو يسأل عن ديارهم فقيل له أن مقيلهم حيث الشيح و البان ، فتوسل الريح للحاق بهم فهم مقيمون عند ظلال شجر الأيك، و طلب منها أن تبلغهم سلامه و أشجانه و أحزانه من فراقهم. هذه هي المعاني الصريحة الظاهرة و لاشك أنها ليست هي المقصودة فيصبح الأحبة هم المناظر الإلهية حيث يقول: "لما كانت المناظر الإلهية لا تشبه لها إلا بالمنظور إليه و هو الله سبحانه في سويدا القلب، كما يليق بجلاله

المنارة للاستشارات

من قوله تعالى (ما و سعني أرضي و لا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن) فهو في قلب العبد، لكنه لما لم يعط تجل في هذه الحالة لم توجد المناظر فبانت من كونها مناظره مع كونه في القلب. و يقال: عز الأمر إذا امتنع فلم يوصل إليه . و الصبر حبس النفس عن الشكوى." [35]

لكن هل هذا يكفي للقول بأنه فعلا المعنى المقصود؟ إن تأويل ابن عربي لتلك الأبيات لا يخرج عن كونه تأويلا من بين عدة تأويلات ممكنة حيث أنه في ديوانه يؤول القصيدة الواحدة عدة تأويلات، الأمر الذي يجعل تلقي الخطاب الصوفي ديناميكيا متعدد الرؤى، و إذا كان المتلقي سيكتفي بما جاء في شروحات ابن عربي فإن قراءته ستتسم بالسلبية و النمطية و يصبح معها الخطاب حيزا مغلقا يحوي عددا محددا من المعاني، فيبتعد بذلك الخطاب عن سمته الأساسية وهي الانفتاح على القراءة و التأويل. "فالكتابة لا تتحقق إلا لأنها تحمل داخلها إمكانية القراءة، و العكس صحيح أيضا فالقارئ لا يستطيع أن يملأ بالمعنى المحدد إلا العمل الذي لا يكون محددا تحديدا مطلقا."[36] فقضية التعبير اللغوي من أبرز القضايا ارتباطا بالفهم و القصدية ما يعد أساسا في النظرية الهرمينوطيقية لارتباطها الوثيق بالمعنى خاصة في التعريفات اللغوية: "عنيت فلانا عنيا قصدته، و من تعني بقولك أب من تقصد.. و معنى كل كلام و معنيته :مقصده." [37] من هنا تظهر العلاقة بين المعنى و القصد ، حيث ينبني المعنى على ما يقصده المخاطب أو ما يحمله الخطاب من معاني تلميحية كانت أو تصريحية.

و هذا ما أكده "الشاطبي" الذي عقد فصلا تحت عنوان المعاني هي المقصودة... و منها: أن يكون الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، و إنما أصلحت الألفاظ لأجلها، و هذا الأصل معلوم عند أهل العربية ، فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد ،و المعنى هو المقصود.[38] إلا أنه يبدو من غير الممكن معرفة المقاصد الحقيقية للمخاطب ذلك أن التأويل يكون متمحورا أساسا على ما يبثه في الخطاب من معان ضمنية أو صريحة من خلال استعماله للكلمات؛ أي أن المعاني التي تتشكل في ذهن القارئ من خلال تحليله السطحي أو العميق للخطاب يشكل جزءا من مقاصد الخطاب ، و إن كانت بعيدة عن مقاصد المخاطب- التي تبدو مع هذا الخلط التأويلي – صعبة التحقيق على الصعيد المقاصدي. و تتحقق فرضياتنا في الخطاب الشعري الصوفي حيث يتأتى للقارئ معرفة المقاصد السطحية للخطاب و قد يرفع الستار عن مقاصد عميقة/ضمنية لكنها لا ترقى لمستوى المقاصد

المنارة للاستشارات
ww

الصوفية البحتة. فيكون حريا بالقارئ الذهاب إلى ما هو أعمق من العميق إذا ما تعلق الأمر بالمعاني الصوفية . كما في قول ابن عربي :

سَلَامٌ عَلَى سَلمَى و مَن حَلَّ بِالحِمَى ... و حَقٌّ لِمِثلِي ،رِقَّةً أَن يُسَلِمَا
و مَاذَا عَلَيهَا أَنْ تَرُدَّ تَحِيَّةً ... عَلَينَا؟ وَلَكِنْ لاَ احْتِكَامَ عَلَى الدُّمَى
سَروا و ظَلَامُ اللَّيلِ أَرْخَى سُدُولَهُ ... فَقُلْتُ لَهَا: صَبًّا غَرِيبًا مُتَيَّمَا
أَحَاطَت بِهِ الأَشْوَاقُ صَونًا،و أَرصَدَت ... لَهُ رَاشِقَاتِ النَّبلِ أَيَّانَ يَمَّمَا
فَأَبدَتْ ثَنَايَاهَا، وَ أَومَضَ بَارِقٌ ... فَلَمْ أَدرِ مَن شَقَّ الحَنَادِسِ مِنْهُمَا
فَقَالَتْ: أَمَا يَكْفِيهِ أَنِّي بِقَلبِهِ ... يُشَاهِدُنِي فِي كُلِّ وَقْتِ أَمَا أَمَا؟[39]

فلفظ سلمى يبدو ظاهريا أنه اسم امرأة يناديها المخاطب شوقا و حبا ، لكن بدرجة معرفية أولية يمكن للقارئ تطبيق سجله المعرفي حول أفكار الصوفية لمعرفة أن سلمى مجرد رمز صوفي لكن ماهية هذا الرمز ترتبط ارتباطا وثيقا بمقصدية ابن عربي التي يبدو من المستحيل كشفها إلا إذا صرح هو عنها حيث يشير بسلمى إلى حالة سليمانية وردت عليه من مقام سليمان عليه السلام ميراثا نبويا.[40]

و على هذا الأساس يتم التعامل مع النص الأدبي باعتباره "خطابا يحمل في طياته وظائف و مقاصد سياقية، فكل ما يوجد في النص يدل بشكل من الأشكال ، و يحيل على أدوار تداولية و مقاصد مباشرة و غير مباشرة ،فليس هناك في النص الأدبي ما هو مجاني و زائد ، بل ترتبط الدلالة بالمعاني السياقية و الرسائل الظاهرة و المضمرة ."[41]

إن هذا التعتيم الدلالي يفرض على المتلقي تجنيد كل الخبرات القرائية المتعلقة بالتصوف للوصول إلى أعلى درجة وعي ممكنة بما هو عليه واقع المصطلحات الصوفية التي لا تمت للتصريح بصلة، فها هو ابن عربي يقول:

وَزَاحَمَنِي عِندَ اسْتِلَامِي أَوَانِسٌ ... أَتَينَ إِلَى التِّطوَافِ مُعْتَجِرَاتُ
حَسَرنَ عَلَى أَنْوَارِ الشُّمُوسِ،وَقُلنَ لِي: ... تَوَرَّعْ، فَمَوتُ النَّفسِ فِي الحَسَرَاتِ
وَكَم قَدْ قَتَلْنَا، بِالمُحَصَّبِ مِن مِنَى ... نُفُوسًا أَبِيَّاتٍ لَدَى الجَمَرَاتِ[42]

حيث يتحدث عن الأوانس المزاحمات دون الإفصاح عن كون الأوانس مجرد لفظ حمل دلالته الخاصة حيث يقول: "و سماهم أوانس لوقوع الأنس بهن و أنهم لأن اللفظة التي تطلق عليهم

المنارة للاستشارات

تقتضي التأنيث و هو الملائكة و الجنة و لهذا جعلهم من جعلهم بنات و إناثا، و قوله معتجرات، أي غير مشهودة له سبحات وجوههم لأنهم غيب لنا لا نراهم." [43]

"لا توظف لغة النص الأدبي بشكل عشوائي و فوضوي، بل تزخر بمجموعة من الدلالات السياقية و التداولية و الحجاجية إقناعا و تأثيرا ، فكل ما في النص يدل و يحيل و يحمل وظائف سياقية متنوعة، سواء أكانت نصية داخلية أم مقامية خارجية."[44] و من هذا المنطلق كان على القارئ استثمار كل جهده التأويلي و استحضار كل الآليات الممكنة للوصول إلى المقاصد الصوفية.

4. خاتمة: من خلال هذا المقال تم التوصل إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- لغة الخطاب الصوفي لغة بعيدة عن المباشرة و الوضوح فهو لا يطلع المتلقي إلا على النزر القليل و يترك الباقي طي الكتمان ، فيتم بذلك التعامل مع الخطاب الصوفي باعتباره بنية ديناميكية لا كصنم أصم مغلق، وما نشأ عن تلك اللغة الرمزية هو تلك الفضاءات الإيحائية التي يجد فيها المتلقي نفسه تائها في غياب استراتيجية تأويلية واضحة.
- إن متلقي الخطاب الصوفي سيكون لديه ميل للبحث في تفسير كل اختراق ممكن باعتباره تضمينا مقصودا ، لا بوصفه تجاوزا ظاهريا فحسب ذلك أن القارئ هو المطالب بالتعاون بالشكل الأقصى و بذل جهده التأويلي.
- يقوم النشاط التأويلي على أساس الوضع داخل السياق ،حيث لا يمكن تأويل جزء من الخطاب منفصلا بل يجب سياقيا ربطه ببقية أجزاء الخطاب.
- إن المعنى الحرفي الخالص في الخطاب الصوفي غير موجود، النشاط التأويلي يعتبر ضرورة في الخطاب الصوفي ، و كذا فإن تأويل المعاني الضمنية في الخطاب الصوفي يعتمد اعتمادا تاما على الجهد التأويلي للمتلقي.

5. الهوامش:

1-أحمد عبد الغفار، ظاهرة التأويل و صلتها باللغة ، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1998، ص 185.

2- أحمد عبد الغفار، ظاهرة التأويل و صلتها باللغة ، دار المعرفة الجامعية، مرجع سابق، ص 185.

3 -مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة العربية – تأصيل و تجديد ، دار المعارف ،الإسكندرية، 1985، ص 170.

4- نور سلمان، معالم الرمزية في الشعر الصوفي، الجامعة الأمريكية ،بيروت ، 1954 ،ص 55.

5- عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع ، ط1، بيروت ، 1978، ص 120.

المنارة للاستشارات

6- فرناند هالين ، التداولية، تر زياد عز الدين العوف، مجلة الآداب العالمية ،، عدد 56، القاهرة، ص 70.
7 -فرناند هالين ، التداولية، مرجع سابق، ص 73.
8 -محي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي ،كتاب الفناء في المشاهدة، دار إحياء التراث، ط1، بيروت، ص 3.
9 -صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب ، ط1، بيروت ، 1995، ص 227.
10- سحر سامي ،شعرية النص الصوفي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2001، ص 106.
11 -محمد عبد المطلب :قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة، 1995، ص 31.
12 -محمد بن بريكة، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان ،دار المتون للنشر و التوزيع ، ط1، 2006، ص 83.
13-محمد بن بريكة، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان ، مرجع سابق، ص 83- 84.
14- القشيري ،الرسالة القشيرية، تح: عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، ط1، 1966، ص 200.
15 -ينظر :فرانسوا راستي، فنون النص و علومه، تر: إدريس الخطاب، دار توبقال للنشر و التوزيع، ط1، 2010، ص 125.
16 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع ، ط1، 2005، بيروت ، لبنان، ص 35.
17 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق، ص 35.
18 -ينظر: ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 35.
19- جورج لايكوف ، مارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها ،تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر و التوزيع، ط2، 2009، ص 31.
20 -محمد عبد المنعم خفاجي، محمد السعدى فرهود، عبد العزيز شرف،الأسلوبية و البيان العربي، الدار المصرية اللبنانية ، ط1، 1992، ص 39.
21- ينظر: موريس أبو ناضر، إشارات اللغة و دلالة الكلام، ط1، كانون الثاني، 1990، بيروت ، ص 58.
22- ابن عربي، ترجمان الأشواق، مرجع سابق، ص 52.
23 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ،ص 52.
24 -موريس أبو ناضر، إشارات اللغة و دلالة الكلام، مرجع سابق، ص 58- 59.
25- فيليب بلانشيه ،التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر و التوزيع، ط1،2007، سوريا، ص 82.
26 -ابن عربي، ترجمان الأشواق، مرجع سابق، ص 53.
27 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 53.
28 -فرناند هالين، تر زياد عز الدين العوف ، التداولية، تر زياد عز الدين العوف، مجلة الآداب العالمية ، عدد 56 القاهرة، ص 43.
29- ابن عربي، ترجمان الأشواق،مرجع سابق، ص 94.
30 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 95.
31- ينظر: ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص141 .
32 -براون ويول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي –منير التريكي، النشر العلمي والمطابع،ط1 ،جامعة الملك سعود، 1997، ص 42.
33 -ابن عربي، ترجمان الأشواق،مرجع سابق، ص 68.
34 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 47- 48.
35- ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 47.

المنارة للاستشارات

36 -وليم راي، من الظاهراتية إلى التفكيكية ، تر: يوئيل يوسف عزيز ، دار المأمون للترجمة و النشر، ط1، دار الحرية ، بغداد ، ص 25.

37 -ابن عربي ، ترجمان الأشواق، مرجع سابق، ص 152.

38 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 41.

39-ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 45.

40 -ينظر: ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ،ص 53.

41 -جميل حمداوي، التداوليات و تحليل الخطاب، مكتبة المثقف، ط1،2015، ص 14.

42 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق، ص 49.

43-ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 57.

44 -جميل حمداوي، التداوليات و تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 16.

المنارة للاستشارات